

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

العسكرية الإسلامية ونهضتنا الحضارية

• الإسلام حضارة كاملة ، ودستور شامل لأمر الحياة دينا ودنيا...
ولما كانت الحرب ظاهرة اجتماعية ، فقد عالجها الإسلام ، ووضع لها
المبادئ الرئيسية لكل ما يتصل بها من حيث أهدافها وأساليب إدارتها
وقوانينها وآدابها .

والباحث المنصف يجد في تعاليم الإسلام المستقاة من القرآن الكريم
والسنة النبوية الشريفة القولية والفعلية والتفكيرية ، كل ما تحويه المدارس
العسكرية العالمية في الشرق أو الغرب من نظريات أساسية في شئون
الحرب .

وبذلك يمكن أن يقال : إن العرب أصبح لهم بعد الإسلام مدرسة
عسكرية لأول مرة في تاريخهم .

• وكان الرسول ﷺ قائد هذه المدرسة ومعلمها الأول .. وإذا كان
علماء النفس وخبراء القيادة العسكرية قد استخلصوا الصفات التي يجب
أن يتحل بها القائد الكفاء . وذلك من خلال دراستهم لشخصيات أبرز
القادة في التاريخ الحربى ، فذكروا منها قوة الشخصية والشجاعة واليقظة

والحسم وقوة التحمل والتواضع والمبادأة والنزاهة والروح المرحية والذكاء والعدل والحكمة واللباقة ؛ فإن كل هذه الصفات بل وصفات أخرى غيرها قد اجتمعت لدى الرسول القائد ﷺ ، فهو المثل الكامل والقدوة المثلى كما يقول الله تعالى : ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب : ٢١]

وكما خاطبه بقوله : ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾

[القلم : ٤]

فقد وضعه الله تحت حراسته ورعايته حتى حدث هو عن نفسه فقال : «أدبني ربي فأحسن تأديني» .

فلا عجب إذن أن يظهر الرسول القائد ﷺ في الأمور العسكرية ما يثير الإعجاب والتقدير من عبقرية فذة في القيادة والتخطيط وإدارة المعارك .

• وفي المدرسة العسكرية الإسلامية ، تعلم أجدادنا المسلمون الأوائل من قادة وجنود جيش الإسلام الأول ، وطبقوا تعاليمها ونظرياتها عملياً في ميادين القتال ، دفاعاً عن الدين والأمة ، فكانوا مضرب الأمثال في القيادة والشجاعة والعبقرية الحربية ، وأثبتت نظريات تلك المدرسة عملياً صحتها وكما لها .

وتاريخ معارك الإسلام في عصر النبوة وحده - على سبيل المثال - يشهد للمسلمين بقدرتهم وكفاءتهم العالية على القيام بجميع أشكال

العمليات العسكرية كالدفاع والهجوم والمطاردة والتخلص من المعركة ومسير الاقتراب ، والإغارات وأعمال الاستطلاع والمخابرات والحرب النفسية ودوريات القتال ، والهجوم على القرى والمواقع الحصينة وأعمال الحصار .. الخ .

وقيام المسلمين بهذه العمليات المتنوعة ، دليل على كفاية تدريبهم عليها كما يقول فيلسوف الحرب كلاوزفيتز : «يمكن للقوات العسكرية المدربة جيدًا أن تقوم بجميع الأعمال العسكرية» .

• ولعل أبرز ثمار المدرسة العسكرية الإسلامية نتيجة لتطبيق نظرياتها وتعاليمها على أيدي الرجال الذين تعلموا فيها هو ما أصبح من حقائق التاريخ التي لا تنازع والتي نذكر منها ما يلي :

١ - تأمين الدعوة وتأسيس الدولة الإسلامية ، وتحقيق الأمن والاستقرار لها لكي تؤدي رسالتها لخير البشرية .

٢ - امتداد الفتوحات الإسلامية في أقل من مائة عام من حدود الصين شرقًا إلى المحيط الأطلسي غربًا .

٣ - تمكين الأمة الإسلامية الناشئة من إدارة دفعة الحرب في جبهتين عظميين في «وقت واحد» في مواجهة أعظم قوتين عالميتين في ذلك الوقت هما فارس وبيزنطة والانتصار عليهما ، وهذا مثل فريد في التاريخ الحربى .

٤ - إتقان العرب - وهم أبناء الصحراء - ركوب الأساطيل والحرب البحرية وتغلبهم على أسطول بيزنطة وهى كانت أعظم قوة بحرية فى زمانها .

٥ - فتح الطريق لتأسيس الحضارة الإسلامية لخير البشرية فى ميادين العلوم الطبيعية والاجتماعية .

• لكن لماذا لم ندرس العسكرية الإسلامية فى معاهدنا ؟؟

الواقع أنه قد أريد بالعسكرية الإسلامية أن تنظمس معالمها فى إطار حرب حضارية طاحنة ، تستهدف طمس معالم الحضارة الإسلامية ومنع قيامها من جديد . وكان من آثار ذلك أن عاشت دول عربية وإسلامية كثيرة تعتمد زمنًا طويلًا على الدول الأجنبية فى مجال العلم العسكرى ، وفن الحرب سواء من الناحية النظرية أو التطبيقية ، فأصبح رجال العسكرية فيها يدرسون النظريات العسكرية الأجنبية ، وأعمال القادة الأجانب ، والتاريخ العسكرى للدول الأجنبية ، وكأنه ليس للعرب والمسلمين نظريات عسكرية ، ولا قادة ولا تاريخ عسكرى يستحق الدراسة ، كما عاشت تلك الدول تعتمد على الدول الأجنبية أيضًا فى تزويد جيوشها بالسلاح والعتاد ، وكأنه ليس للعرب والمسلمين قدرة على الصناعة الحربية أو بحوثها العلمية !!

• وهكذا كان فرض التبعية على العرب والمسلمين فى مجال الفكر العسكرى وفن الحرب هدفًا من بين أهداف الحرب الحضارية ، التى شنها الأعداء على الأمة العربية والإسلامية . ودليلنا على ذلك هو ما يلى :

١ - إن الباحث المطلع يلاحظ أنه منذ عصر النهضة حتى اليوم ، وضعت آلاف الكتب حول الإمبراطورية الرومانية ، فى حين لا يتعدى ما كتب فى الغرب عن الفتوحات الإسلامية عدد أصابع اليد ، ويفسر لنا السر فى ذلك شاهد من الغرب هو الجنرال جون باجوت جلوب فى كتابه (الفتوحات العربية الكبرى) فيقول : «إن أوروبا ظلت قرونا طويلة تعتبر الفتوحات الإسلامية كوارث رهيبة ، ولم يكن ثمة مسيحى يود أن يذكره الناس بها ، وليس المؤرخون إلا بشراً ، ولذا تثبط عزائمهم إذا لم يجدوا من يقرأ لهم ، فقد كتب سيمون أوكلى ، وهو أحد المؤرخين الإنجليز الأوائل الذين أرخوا للفتوحات العربية بعض كتبه العظيمة ، وهو رهن السجن فى كمبردج وفاء لدين عليه ، ولم يكن دخله من بيع كتبه كافياً لتمكيه من إعالة أسرته .

٢ - إن من الباحثين الأجانب الذين تناولوا الأعمال العسكرية الإسلامية^(١) من يدعى أن الإسلام كان متخلفاً فى المجال العسكرى ، وأنه لم يضيف شيئاً جديداً إلى فن الحرب ، ومن أراد منهم أن يبدو موضوعاً

(١) انظر التفاصيل فى المصادر التالية على سبيل المثال :

- صفحة ١٩٩ إلى ٢٠١ من كتاب

The Encyclopedia of Military History (By Ernest Dupuy & Trevor N. Dupuy).

- و صفحة ٤٣ إلى ٤٦ من كتاب

The Arabs, A Short History (By Philip K. Hitti).

- و صفحة ٤٠٥ من دائرة المعارف البريطانية ج ٢ .

فى دراسته نراه يركز كثيراً على العوافع المعنية من الإيمان وقوة العقيدة ، ولا يتناول الجوانب الفنية للمعارك من زاوية العلم العسكرى وفن الحرب ، التى تزخر بها معارك الإسلام حقيقة . ولسنا هنا بصدد الرد على كتابات العسكرين الأجانب عن العسكرية الإسلامية ، فذلك أمر يتطلب مؤلفاً خاصاً ، ولكننا نوجه السؤال المنطقى التالى : هل يقبل العقل أن تكون الشجاعة وقوة العقيدة وحدهما وراء النجاح فى العمليات الحربية للمسلمين دون أن يكون معهما شىء من الكفاية الحربية فى القيادة وأساليب القتال ؟ وهل يقبل العقل أن يكون من العرب رواد فى كل نواحي العلوم الطبيعية والاجتماعية ولا يكون منهم رواد فى فن الحرب ؟

٣ - وبعض المؤرخين يحاول أن يهون من عظمة المسلمين وانتصاراتهم ، فيعلل سرعة الفتح الإسلامى باندفاع الغزائر الحربية المتأصلة فى المسلمين منذ الجاهلية التى تدفعهم إلى السلب وأعمال القرصنة ، ويضيف إلى ذلك ضعف الإمبراطوريتين الفارسية والبيزنطية ، وفى ذلك يقول الأستاذ عباس محمود العقاد^(١) :

«وما يزال الأكثرون من المؤرخين المحدثين يستعظمون على العرب أن يغلبوا الفرس والروم ، ويحسبون هذه الغلبة شيئاً قد حصل ، وكان ينبغى ألا يحصل ، لولا أنها فلتة لا يقاس عليها ، ومصادفة لا تقبل التكرار ، وبعضهم يلتمس العلة فيقول : إنها عقيدة المسلمين

(١) عبقرية خالد - عباس محمود العقاد (المقدمة - البادية والحرب) .

القوية ، وانتقار الفرس والروم إلى مثل هذه العقيدة ، وكل أولئك
تعليل ناقص من كل نواحيه :

(أ) فالمصادفة ، لا محل لها في حوادث الوجود ، ولا تطرد في قتال
بعد قتال ، من جوف الصحراء إلى عمران العراق والشام ومصر ومشارك
الأرض ومغاربها بين أفريقيا والصين .

(ب) وانحلال دولة من الدول ، قد يقينها ويعجزها عن النصر ، ولكنه
لا يقيم دولة أخرى لم تتجمع لها أسباب النهوض والتمكن .

(ج) والعقيدة ، قوة لا غناء عنها بقوة أخرى لمن يفقدها ، ولكنها
هي وحدها لا تغني عن الخبرة والاستعداد ، ولا تفسر لنا اختلاف النجاح
باختلاف الخطط والقواد ، وقد كان المسلمون على عقيدتهم الراسخة
يوم لقائهم هوازن وشيعتها بوداي حنين ، فأوشكوا أن ينهزموا لاعتدادهم
بكثرتهم وقلة مبالاتهم بعدوهم ، وأوشكت عاقبة الاستخفاف هنا أن
تصيب المسلمين كما أصابت الفرس والروم ، وفي ذلك يقول القرآن
الكریم : ﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أُنْجِبْتُمْ كَثْرَتَكُمْ كَثَرْتُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ
عَلَيْكُمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُذْبِرِينَ ﴾

[التوبة : ٢٥]

فمهما يهرب هؤلاء المؤرخون من الحقيقة فلا يحيص لهم من الرجوع
إليها لفهم الغلبة الإسلامية أو فهم الهزيمة الفارسية والرومانية ، وهذه
الحقيقة هي أن المسلمين أيضا كانوا أخير بالفنون العسكرية من أهل فارس

والروم ، وكانوا أقدر على تنفيذ الخطط العسكرية التى تنفعهم من قواد
تينك الدولتين ، وأن البادية العربية سواء فى عصور الجاهلية أو صدر
الإسلام ، لم تكن من الجهل بفن الحرب بتلك الحالة التى توهمها المؤرخون
الأوروبيون ، بل معظم المؤرخين عامة ، ولا نحاشى منهم العرب
والمسلمين .

٤ - وفى اعتقادى أن أعداء الإسلام أرادوا - إحكامًا لتنفيذ مخططهم
لطمس معالم العسكرية الإسلامية - أن يمنعوا رجال العسكرية المسلمين
من تناول العسكرية الإسلامية بالدراسة ، فروجوا دعوى أن الإسلام قام
بالسيف ، وهى دعوى مفترضة من بين أهدافها ، فرض نوع من الحساسية
حول تناول الجوانب العسكرية فى الإسلام ، بحيث يؤثر الكتاب المسلمون
المتخصصون تجنب دراستها من وجهة نظر العلم العسكرى وفن الحرب .
٥ من أجل ذلك فإن قضية أمتنا العربية والإسلامية اليوم هى مقاومة
كل محاولة للغض من تاريخنا ، وطمس معالم حضارتنا ، وتحويلنا عن
مقوماتنا الأساسية .

ونقطة الإنطلاق نحو النهضة الحضارية الشاملة ، هى إحياء العسكرية
الإسلامية بالدراسة والتحليل والتمجيد على أساس النقاط التالية :

١ - التعريف بالمدرسة العسكرية الإسلامية ، وما تحتوى عليه من
نظريات ومبادئ وأساليب وآداب ، وكل ما يتعلق بشئون الحرب .

٢ - تصحيح المفاهيم التى سادت لدى الدول الأجنبية وصدقها بعض
العرب والمسلمين عن تخلف الإسلام فى مجال العلم العسكرى ، وفن

الحرب والتي حفلت بها المراجع الأجنبية التي تناولت تاريخ الحروب وتطور فن الحرب ، وذلك بالأسلوب العلمى المدعم بالحجة والبرهان .

٣ - توحيد العقائد والاستراتيجيات العسكرية للأمة العربية والإسلامية على أساس تعاليم الإسلام ، والمدرسة العسكرية الإسلامية ، والعمل بمبادئها ونظرياتها فى بناء قوتها الحربية وإعداد وتدريب قادتها ومقاتليها .

هـ هذه - فى يقينى - هى القاعدة الراسخة الثابتة ، التى يجب أن نقف عليها جميعاً اليوم ، ونثبتها فى عقول أبنائنا ونفوسهم ، حتى تكون بقيمها السامية ومقاصدها النبيلة ، حصنهم الأول الذى يعمدون فيه من سهام الغزو الفكرى العسكرى ، وقاعدة انطلاقهم نحو بناء القوة الذاتية لأمتهم ، ﴿ولينصرون الله من ينصره إن الله لقوى عزيز﴾.